السياق القرآني وأثره في التفسير

دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور

إعداد

الدكتور / محمد عبد الوهاب الراسخ

مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين بطنطا

جامعة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد

فإن القرآن الكريم هو حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، وهو العصمة لمن تمسك به ، والنجاة لمن اتبعه ، وهو الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، وهو كتاب الله الخالد ، ومعجزة النبي – صلى الله عليه وسلم – الكبرى ، ومن أبرز وجوه إعجازه تماسك آياته وترابط جمله وكلماته ، وجريانها في سياق ملتئم بالرغم من تباعد أزمان وأحوال نزولها ، وما أجمل ما عبر به الشيخ دراز عن هذا الوجه الإعجازي للقرآن بقوله : « أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا ، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول ، وأقيم على كل أصل منها شعب ، وفصول وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها وإنما هو

حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه يريك المنفصل متصلا والمختلف مؤتلفا ، ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسها كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين وتؤدي بمجموعها غرضا خاصا كما يأخذ الجسم قواما واحدا ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية »[١] .

ومن هنا كان من الواجب على من يتصدى لتفسير القرآن أن يراعي في تفسيره هذا الإحكام والترابط ، وأن يتقيد بالسياق الذي تسير فيه الآية حتى يكون فهمه للقرآن فهماً صحيحاً .

فالسياق القرآني يعتبر أصلاً من أصول علم التفسير ، لا غنى للمفسر عنه ، لما له من أثر ظاهر في فهم كلام الله تعالى ، وبيان المعنى الصحيح في الآية . يقول الإمام العز بن عبد السلام : « السياق مرشد إلى تبيين المجملات ، وترجيح المحتملات ، وتقرير الواضحات ، وكل ذلك بعرف الاستعمال ، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحاً ، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذما »[٢] .

---

(١) النبأ العظيم . د/ محمد عبد الله دراز (ص ١٥٥) ، ط : دار الثقافة – الدوحة .

(٢) الإمام في بيان أدلة الأحكام للعز بن عبد السلام (ص ١٥٩) ، تحقيق / رضوان مختار ، ط : دار البشائر الإسلامية – بيروت ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

ومن هنا وقع اختياري على هذا الموضوع لألقي فيه الضوء على أهمية السياق في تفسير القرآن ، وذلك وفق دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور حيث إنه من أبرز من اعتمد على السياق في مجالات متعددة في تفسيره .

وقد وقع هذا البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة .

المقدمة : وقد تضمنت أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومحتويات البحث .

التمهيد : ويتضمن ترجمة مختصرة للإمام ابن عاشور وتفسيره .

المبحث الأول : **تعريف السياق، وبيان أهميته في تفسير القرآن** ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تعريف السياق ، وبيان منهج الكشف عنه .

المطلب الثاني : أهمية السياق في تفسير القرآن الكريم .

المطلب الثالث: اعتماد السياق كمصدر من مصادر التفسير الأصيلة.

المبحث الثاني: **أثر السياق القرآني في تفسير الطاهر بن عاشور**، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : أثر السياق في القراءات .

المطلب الثاني : أثر السياق القرآني في كشف المعاني .

المطلب الثالث : أثر السياق فيما يتعلق ببعض مباحث علوم القرآن.

المطلب الرابع: أثر السياق فيما يتعلق بأقوال المفسرين واختلافاتهم.

المطلب الخامس: أثر السياق فيما يتعلق بالنواحي اللغوية والبلاغية .

الخاتمة : وقد تضمنت أهم النتائج وثبتاً بالمراجع والفهارس .

وبعـد

فما كان في هذا البحث من جهد وتوفيق فمن الله وحده ، وما كان من قصور فمن نفسي ومن الشيطان ، وأستغفر الله العظيم منه ، وأسأله – سبحانه وتعالى – أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين

كتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد عبد الوهاب إبراهيم الراسخ

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين بطنطا

التمهيـــد :

ويتضمن ترجمة مختصرة للإمام ابن عاشور وتفسيره

أولاً : التعريـف بالإمـــام ابـن عاشـــور :

وفيه خمسة مطالب

* المطلـب الأول : اسـمه ومولـده ونشـأته :

هو الإمام محمد الطاهر بن محمد بن محمد بن الطاهر بن عاشور ، الشهير بالطاهر ابن عاشور التونسي .

ولد – رحمه الله – بمدينة تونس سنة ١٢٩٦ هـ – ١٨٧٩ م ، بقصر جده لأمه الصدر الأعظم محمد العزيز بو عتور .

حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ المقرئ محمد الخياري ، ثم حفظ المتون الأولى، وتعلم اللغة الفرنسية، والتحق بجامع الزيتونة سنة ١٣١٠هـ ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، فدرس علوم الزيتونة ونبغ فيها ، وأظهر همة عالية في التحصيل .

* المطلـب الثانـي : حياتـه العلميـة :

لقد جاب كل أصقاع القطر التونسي ، كما زار الجزائر والمغرب وليبيا وأغلب بلاد الشرق العربي ، وتركيا وأوروبا .... عين مدرساً بالمدرسة الصادقية سنة ١٩٠٤ م ، ثم عضوا بمجلس إدارتها ، ثم عين نائباً في نظارة جامع الزيتونة، ثم عضواً في لجنة إصلاح جامع الزيتونة ، ثم مديراً لجامع الزيتونة ، ثم رئيساً لجامع

الزيتونة سنة ١٩٤٥ م ، ورئاسة الجامعة الزيتونة سنة ١٩٥٦ م ، ثم تولي القضاء والإفتاء بعضويته في المجلس الأعلى بالأوقاف ، وصار رأس علماء المذهب المالكي في جامع الزيتونة .

مؤلفاته كثيرة ، منها : تفسيره التحرير والتنوير ، مقاصد الشريعة الإسلامية ، أليس الصبح بقريب ، وقصة المولد .... وغيرها .

*** المطلب الثالث : شخصيته وأخلاقه :**

أجمع جميع أصدقائه وتلاميذه على سمو أخلاقه ، وعراقة شخصيته وكرمه ونبله

وأهم صفاته وأخلاقه : جديته في تأدية الواجبات ومثابرته ، وطموحه وهمته ، ووقار شخصيته وقوة حافظته ، وسرعة بديهته ، وغزارة علمه ، ولين جانبه ، وعفة لسانه ، وحبه للعلم ، وخدمته لأهله من أساتذة وطلبة ومحبين .

*** المطلب الرابع : وفاته :**

توفي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور يوم الأحد الموافق ١٢ / ٨ / ١٩٧٣ م بعد حياة حافلة بالعلم والإصلاح والتجديد على مستوى تونس والعالم الإسلامي [١] .

---

(١) انظر : الأعلام للزركلي (٦ / ١٧٤ – ١٧٥) ، ط : دار العلم للملايين ، ط : الخامسة عشر ٢٠٠٢ م ، وتراجم المؤلفين التونسيين ، ت / محمد محفوظ (٣ / ٣٠٤ – ٣٠٩) ، ط : دار الغرب الإسلامي ، ط : الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ومنهج ابن عاشور في القراءات في تفسيره التحرير والتنوير ، ت / بسام عليان = (ص ٥٥١ – ٥٥٢) مجلة الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة – المجلد التاسع عشر – يونيو ٢٠١١ م .

ثانياً : التعريف بتفسير الطاهر بن عاشور :

اشتهر تفسير الطاهر بن عاشور باسم « التحرير والتنوير » والاسم الكامل له هو « تحرير المعنى السديد ، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد » ، وقد بيَّن الشيخ منهجه فيه في مقدمته حيث قال : (وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال ، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض ، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي ، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع، أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقاً على المفسر .

ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله .

واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة . وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده ، ويتناول منه فوائد ونكتاً على قدر استعداده ، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير ، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير ، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات

القماطير ، ففيه أحسن ما في التفاسير ، وفيه أحسن مما في التفاسير . وسميته تحرير المعنى السديد ، وتنـوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، واختصرت هذا الاسـم « التحرير والتنوير من التفسير »)[١] .

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١ / ٨) ، ط : مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان ، ط : الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

المبحـــــــث الأول

تعريف السياق ، وبيان أهميته في تفسير القرآن

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : تعريف السياق ، وبيان منهج الكشف عنه .

المطلب الثاني : أهمية السياق في تفسير القرآن الكريم .

المطلب الثالث : اعتماد السياق كمصدر من مصادر التفسير الأصيلة .

المطلـــب الأول

تعريف السياق ، وبيان منهج الكشف عنه

أولاً : تعـــريف الســـياق :

أ – السياق في اللغة :

للوقوف على تعريف لغوي دقيق للسياق ، يحسن بنا أولا مطالعة بعض المعاجم اللغوية ، ومن ثم نستخلص منها هذا التعريف :

* قال الجوهري [١] : « ويقال : ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد ، أي بعضهم على إثر بعض ، ليست بينهم جارية » [٢] .

* وفي معجم مقاييس اللغة : « السين والواو والقاف أصل واحد ، وهو حدو الشيء . يقال ساقه يسوقه سوقا ، والسيقة ما استيق من الدواب ، ويقال : سقت إلى امرأتي صداقها ، وأسقته ، والسوق مشتقة من هذا ، لما يساق إليها من كل شيء ، والجمع أسواق ، والساق للإنسان وغيره ، والجمع سوق ، إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها » [٣] .

---

(١) الجوهري : هو إسماعيل بن حماد صاحب الصحاح ، كان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنة ، وكان إماما في اللغة والأدب . توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة ، وقيل في حدود الأربعمائة. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١ / ٤٤٧) ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : المكتبة العصرية – لبنان – بدون تاريخ .

(٢) الصحاح للجوهري (٤/ ١٤٩٩) ، ط : دار العلم للملايين ، ط : الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ١١٧ مادة « سوق » ، ط : دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

* وفي لسان العرب: « السوق معروف ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقاً ... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعت »[١] .

* وفي القاموس المحيط : « والسياق ، ككتاب : المهر .... والمنساق : التابع ، والقريب . ومن الجبال : المنقاد طولاً ، وساوقه : فاخره في السوق ، وتساوقت الإبل : تتابعت وتقاودت ، والغنم : تزاحمت في السير »[٢] .

بالنظر في كلام اللغويين السابق ، يظهر لنا أن استعمال العرب لكلمة السياق يدور حول معنى التتابع والاتصال، وعليه فيمكننا القول بأن السياق في اللغة يعني: تتابع الأشياء واتصالها في وحدة متماسكة تخدم هدفاً واحداً .

ب – السياق في الاصطلاح :

تنوعت تعريفات العلماء في السياق ، ولنا أن نستعرض شيئاً من أقوالهم في ذلك ليتبين المراد :

* قال ابن دقيق العيد : « أما السياق والقرائن فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه »[٣] .

* وفي حاشية العطار على جمع الجوامع : « قرينة السياق هي ما يؤخذ من

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٠ / ١٦٦) مادة « سوق » ، ط : دار صادر – بيروت .

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي ص ٨٠٦ – مادة « سوق » ، ط دار الفكر ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م

(٣) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد (١ / ٢٧٨) ، ط : مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه » [١] .

* وفي الإتقان : « وعليه – أي المفسر – بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف ، والغرض الذي سيق له الكلام » [٢] .

* وقال بعض الباحثين : « السياق هو الغرض الذي تتابع الكلام لأجله مدلولاً عليه بلفظ المتكلم، أو حاله، أو أحوال الكلام، أو المتكلم فيه، أو السامع » [٣] .

وقيل : السياق هو : « الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته » [٤] .

تأمـــل وتحليـــــل :

بالنظر إلى ما سبق من أقوال العلماء في تحديد مفهوم السياق يمكننا الخروج بنتيجة واضحة ، وهي أن السياق يتألف من ثلاثة عناصر :

أولها : الغرض والمقصود ومراد المتكلم .

---

(١) حاشية العطار على جمع الجوامع (١ / ٣٠) ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٦ / ٢٣١٦) ، تحقيق / مركز الدراسات القرآنية ، ط : مجمع الملك فهد بالسعودية ، ط : الأولى .

(٣) دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام (ص ٢٦ ، ٢٧) رسالة ماجستير للباحث / فهد بن شتوي بن عبد المعين – جامعة أم القرى بمكة المكرمة – كلية الدعوة وأصول الدين – الرقم الجامعي ٤٢٣٨٨٠٢٩٧ .

(٤) المرجع السابق (ص ٢٧) .

ثانيها : تآلف الكلام وتتابعه وجريانه على أسلوب واحد .

ثالثها : الظروف المحيطة بالنص وأحوال المخاطبين فيه .

هذا وبناءً على ذلك يمكننا أن نخلص إلى تعريف أدق للسياق يجمع التعريفات السابقة كلها وهو أن السياق : ما يحيط بالنص القرآني من قرائن لفظية وحالية لها أثر في فهمه ومعرفة الغرض منه .

والمقصود بالقرائن اللفظية : القرائن النصية وهي ما احتواه النص من التعبير والتركيب والارتباط بين الآيات ونحوها . والمقصود بالقرائن الحالية : الأسباب والأحوال التي نزلت الآية فيها .

ثانيـاً : منهـج الكشـف عـن السـياق :

الكشف عن السياق والوصول إليه مبني على الاجتهاد ودقة الاستنباط ، وإدراكه مما تختلف فيه العقول ، وذلك أنه مرتبة بعد إدراك المعنى العام ، ويتطلب فهمه إشغالاً للذهن ، ولذلك كانت دلالة السياق دلالة ذوقية كما عبر عنها الأصوليون .

وفهم السياق والوصول إليه واستنباطه يتطلب أموراً :

أولها : صفاء الذهن ودقة النظر وطول التأمل في كتاب الله تعالى ، وإعادة البحث والتحري طلبا للسياق وتعيينه بقرائنه المختلفة .

ثانيها : أن يطيل التأمل والبحث في النظام العام الذي بنيت عليه السورة بمجموعها ، فإن ذلك من أعظم ما يدل على فهم الآيات منها .

ثالثها : أن يكـون على دراية بحال المتكلم . يقول ابن تيميـة : « وموجب الأدلة السمعية يتلقى من عرف المتكلم بالخطاب لا من الوضع المحدث ، فليس لأحد أن يقول إن الألفاظ التي جاءت في القرآن موضوعة لمعاني ثم يريد أن يفسر مراد الله بتلك المعاني ، هذا من فعل أهل الإلحاد المفترين »[١] .

رابعها : أن يكون على دراية بحال السامع . يقول ابن تيمية : « ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ وعادتهم في الكلام وإلا حرف الكلم عن مواضعه ، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك »[٢] .

خامسها : أن يكون على دراية بالأحوال التي نزلت فيها الآية ، فيدخل في هذا معرفة أسباب النزول ، ومعرفة أحوال النبي ﷺ وأحوال الصحابة ، وسيرته ، ومعرفة المكي والمدني ، وغيرها من أحوال نزول القرآن ، ولقد كان الصحابة – رضي الله عنهم – يعتنون بهذا لما له من الأثر الكبير في فهم المعنى .

قال السعدي : « ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ معرفة الآيات القرآنية المنزلة

---

(١) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١ / ٥٤٤) ، مطبعة الحكومة – مكة المكرمة ، ط : الأولى ١٣٩٢ هـ .

(٢) مجموع الفتاوى . لابن تيمية (١ / ٢٤٣) ، ط : دار الوفاء ، ط : الثالثة ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

عليه وفهم المعنى . والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول ، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس ، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافا كثيرا ، فلو أراد إنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك ، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله وعلى مراد الله من كلامه شيء كثير . وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله »[١] .

سادسها : النظر إلى نظم النص وألفاظه ودلالات تراكيبه ، وهذا يتضمن أموراً :

الأمر الأول : النظر في مفردات ألفاظ الآية وأصول معناها اللغوي ودلالتها على الغرض ، فإن النظر في الكلمة وأصلها اللغوي يدلك على معان دقيقة مقصودة في الآية .

الأمر الثاني : هيئة الكلمة بمعرفة تصريفها واشتقاقها ، ذلك أن المعاني تختلف باختلاف ذلك .

الأمر الثالث : النظر في التناسب الواقع بين كلمات الآية الواحدة وبين الآية وما قبلها وما بعدها من الآيات ، حيث إنه بتتبع ذلك كله تتبين دلالة الألفاظ على المعاني .

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٦) ، : مؤسسة الرسالة ، ط : الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م .

المطلب الثاني

أهمية السياق في تفسير القرآن الكريم

للسياق أهمية كبيرة وفوائد جليلة في تفسير القرآن أجملها فيما يلي:

١ – تتوقف معرفة المراد على دلالة السياق . قال الزركشي : « دلالة السياق ، فإنها ترشد إلى تبيين المجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [١] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير » [٢] .

٢ – السياق يدل على صحة التفسير، ومن أمثلته: في تفسير قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٣] ، يقول ابن كثير : « قيل : معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد ، وقيل معناه : « على الأرائك ينظرون » إلى الله ﷻ ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [٤] فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ

---

(١) الدخان : ٤٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢ / ٢٠٠ ، ٢٠١) .

(٣) المطففين : ٢٣ .

(٤) المطففين : ١٥ .

وهـم على سررهم وفرشهم »[١] . فهذا ابن كثير نظر إلى سياق الكلام في سابقه تصحيحاً لهذا التفسير .

٣ – السياق يعين في الترجيح عند الاختلاف. مثاله في تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾[٢] .

قال ابن جرير : « اختلف أهل التأويل فيمـن عنـى الله بقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ فقال بعضهم : عنى بذلك النصارى .... وقال آخرون : بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وقال آخرون : بل عنى بذلك مشركي العرب .... وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل : إن الله تعالـى عنى بقولـه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النصـارى دون غيرهم ؛ لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم ، وعن افترائهم عليه وادعائهم له ولداً »[٣] .

٤ – السياق مهم في بيان المناسبات ، ومن أمثلته : قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٢٠٠٥ ، ٢٠٠٦) ، ط : دار الفكر ، ط : الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

(٢) البقرة : ١١٨ .

(٣) تفسير الطبري (٢ / ٥٥٠ – ٥٥٢) ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ، ط : مؤسسة الرسالة ، ط : الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [١]

فقد ختمت الآية الأولى بقوله : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ والثانية بقوله : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

« والجواب : أن قوله تعالى في الآية الأولى : « ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ مناسب للمدرك ليلاً من ضربي ما يعتبر به من المسموعات والمبصرات ، إذ الليل حائل دون المبصرات، وإنما تدرك فيه المسموعات، لأن ظلمة الليل غير مانعة من إدراكها فجيء بما يناسب ، وجيء مع ذكر النهار بما يناسب أيضاً ، فقيل : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لأن المبصرات تدرك نهاراً ولا تدرك ليلاً ، فجيء مع كل بما يناسب . والله أعلم » [٢] .

٥ – والسياق مهم في بيان المتشابه اللفظي في القرآن .

٦ – السياق يعين على تحديد معنى اللفظ المشترك . ومن أمثلة ذلك : في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾ [٣] يقول ابن جرير : « واختلف أهل التأويل في قوله : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ فقال بعضهم عني بقوله : إذا عسعس : إذا أدبر .... وقال آخرون / عني بقوله : إذا عسعس : إذا أقبل بظلامه .... وأولى التأويلين في

---

(١) القصص : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي (١ / ٩١٠ ، ٩١١) ، تحقيق / سعيد الفلاح ، ط : دار الغرب الإسلامي ، ط : الثانية ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م .

(٣) التكوير : ١٧ .

ذلك بالصواب عندي قول من قال : معنى ذلك : إذا أدبر ، وذلك لقوله : ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ [١] فدل بذلك على أن القسم بالليل مدبراً ، وبالنهار مقبلاً » [٢] .

فابن جرير – رحمه الله – رجح أحد المعنيين استدلالاً بالسياق ، ولكن قد خالف ابن كثير ابن جرير في الاختيار ، لاختلافه معه في تحديد السياق . قال ابن كثير : « وعندي أن المراد بقوله : ﴿ عَسۡعَسَ ﴾ إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً ، لكن الإقبال هاهنا أنسب ؛ كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾ [٥] ، وغير ذلك من الآيات » [٦] .

٧ – السياق يعين على بيان المحذوف . قال العز بن عبد السلام : « ولا يحذفون ما لا دليل عليه ، وإذا دار المحذوف بين أمرين قدر أحسنهما لفظا ومعنى والسياق مرشد إليه فيقدر في كل موضع أحسن ما يليق به » [٧] .

---

(١) التكوير : ١٨ .

(٢) تفسير الطبري (٢٤ / ٢٥٥ – ٢٥٧) .

(٣) الليل / ١ ، ٢ .

(٤) الضحى : ١ ، ٢ .

(٥) الأنعام : ٩٦ .

(٦) تفسير ابن كثير (٤ / ١٩٩٨) .

(٧) الإمام في بيان أدلة الأحكام للعز بن عبد السلام (ص ٢٠٤) ، ط : دار البشاير الإسلامية – بيروت ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

مثال ذلك : قول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [١] .

يقول أبو السعود – رحمه الله – : « ﴿ إن كنت تقيا ﴾ أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به ، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه ، أي فإنني عائذة به أو فتعوذ بتعوذي أو فلا تتعرض لي » [٢] .

٨ – السياق يعين على تحديد زمن النزول . مثاله : في قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [٣] . يقول الطبري : « اختلف أهل التأويل فيما نزل فيه قوله ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ فقال بعضهم : ... هذا ونحوه نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل ، وليس لهم سلطان يقهر المشركين ، وكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى ، فأمر الله المسلمين من يجازي منهم أن يجازي بمثل ما أتى إليه أو يصبر أو يعفو فهو أمثل ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأعز الله سلطانه أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم ، وأن لا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية . وقال آخرون : بل معنى ذلك : فمن قاتلكم أيها المؤمنون من المشركين فقاتلوهم كما قاتلوكم . وقالوا : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ بالمدينة ، وبعد عمرة القضية .... وأشبه التأويلين بما دل عليه ظاهر الآية الذي حكى عن مجاهد « وهو القول

---

(١) مريم : ١٨ .

(٢) تفسير أبي السعود المسمى « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » (٥ / ٢٦٠) ، ط : دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٣) البقرة : ١٩٤ .

الثاني » ، لأن الآيات قبلها إنما هي أمر من الله للمؤمنين بجهاد عدوهم على صفة ، وذلك قوله : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ [١] والآيات بعدها ، وقوله ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ إنما هو في سياق الآيات التي فيها الأمر بالقتال والجهاد ، والله جل ثناؤه إنما فرض القتال على المؤمنين بعد الهجرة ، فمعلوم بذلك أن قوله ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ مدني لا مكي ، إذ كان فرض قتال المشركين لم يكن وجب على المؤمنين بمكة » [٢] .

٩ – يعين السياق على معرفة وجود النسخ من عدمه . مثاله : في قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [٣] .

رد الطبري دعوى نسخ هذه الآية بآية النساء وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [٤] رد ذلك من وجهين :

« **أحدهما** : إجماع الجميع من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المسلمين على إجازة أخذ الفدية من المفتدية نفسها لزوجها .

والآخر : أن الآية التي في سورة النساء إنما حرم الله فيها على زوج المرأة أن

---

(١) البقرة : ١٩٠ .

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٨٠ ، ٥٨١) .

(٣) البقرة : ٢٢٩ .

(٤) النساء : ٢٠ .

يأخذ منها شيئاً مما آتاها ، بأن أراد الرجل استبدال زوج بزوج من غير أن يكون هناك خوف من المسلمين عليهما مقام أحدهما على صاحبه أن لا يقيما حدود الله ، ولا نشوز من المرأة على الرجل .

إذا كان الأمر كذلك ، فقد ثبت أن أخذ الزوج من امرأته مالاً على وجه الإكراه لها والإضرار بها حتى تعطيه شيئاً من مالها على فراقها حرام ، ولو كان ذلك حبة فضة فصاعداً . وأما الآية التي في سورة البقرة فإنها إنما دلت على إباحة الله – تعالى ذكره – له أخذ الفدية منها في حال الخوف عليهما أن لا يقيما حدود الله بنشوز المرأة ، وطلبها فراق الرجل ، ورغبته فيها ، فالأمر الذي أذن به للزوج في أخذ الفدية من المرأة في سورة البقرة ضد الأمر الذي نهى من أجله عن أخذ الفدية في سورة النساء ، كما الحظر في سورة النساء غير الإطلاق والإباحة في سورة البقرة ، فإنما يجوز في الحكمين أن يقال أحدهما ناسخ إذا اتفقت معاني المحكوم فيه ، ثم خولف بين الأحكام فيه باختلاف الأوقات والأزمنة ، وأما اختلاف الأحكام باختلاف معاني المحكوم فيه في حال واحدة ووقت واحد ، فذلك هو الحكمة البالغة ، والمفهوم في العقل والفطرة وهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل »[1] .

١٠ – وللسياق أثره في القراءات ، ويظهر ذلك في كونه من القرائن التي تساعد في الترجيح بين القراءات . مثاله : في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا

(١) تفسير الطبري (٤ / ٥٨١ ، ٥٨٢) .

كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾[١] .

قال ابن عطية : « قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر : " يُكَذِّبُون " بضـم الياء وتشديد الذال ، وقـرأ الباقـون بفتح الياء وتخفيف الذال[٢] ... والقراءة بالتخفيف يؤيدها أن سياق الآيات إنما هي إخبار بكذبهم »[٣] .

١١ – يعين السياق على تحديد أسلوب الكلام ، حين يخالف ظاهره المقصود به ، وذلك حين يأتي التعبير بالماضي والمقصود المضارع أو العكس ، وحين يكون الأسلوب ظاهره الخبر والمقصود به الإنشاء ، وهكذا على أن الاختـلاف له غرض في بيـان المعنى . مثاله في قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ ﴾[٥] الأسلوب أسلوب خبر ، لكن المراد من ذلك الأمر ، والمرشد هو السياق ، لكنه كان على الخبر تأكيداً ، فكانت الصيغة مقصودة .

قال الزركشي عن هاتين الآيتين : « السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك لا أنه خبر ، وإلا لزم الخلف في الخبر »[٦] .

---

(١) البقرة : ١٠ .

(٢) النشر (٢ / ٢٣٧) .

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . لابن عطية (١ / ٨١) ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط : الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .

(٤) البقرة : ٢٢٨ .

(٥) البقرة : ٢٣٣ .

(٦) البرهان في علوم القرآن (٢ / ٣٢٠) .

١٢ – يعين السياق في بيان سبب التقديم . مثاله : قال الزركشي في المقتضى التاسع من مقتضيات تقديم ما قدم والمعنى عليه : « التاسع : سبق ما يقتضي تقديمه وهو دلالة السياق كقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [١] لما كان إسراحها وهي خماص وإراحتها وهي بطان قدم الإراحة لأن الجمال بها حينئذ أفخر » [٢] .

تلك كانت وقفة مع أهمية السياق ، وهي تبرز لنا مدى فائدته في تفسير النص القرآني [٣] .

---

(١) النحل : ٦ .

(٢) المرجع السابق (٣ / ٢٦٢) .

(٣) راجع أهمية السياق بالتفصيل في : دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام (٧١ – ٨٤) .

المطلـــب الثالـــث

اعتماد السياق كمصدر من مصادر التفسير الأصيلة

المقصد من هذا المطلب التأصيل للسياق القرآني بمعنى إثبات كونه مصدراً أصيلاً يجب الاعتماد عليه في التفسير ، ويظهر ذلك من خلال عدة أمور :

أولها : أن الرسول ﷺ أول من اعتمد السياق واستعمله في بيان المراد من النص القرآني . ومن الأمثلة على ذلك ما روي عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [١] ، قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون . قال : « لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك يسارعون في الخيرات » [٢] . فمن الواضح أن رسول الله ﷺ استعمل السياق في بيان أن الآية في المؤمنين الطائعين لا العصاة .

ثانيها : أن الصحابة – رضوان الله عليهم – استخدموا السياق في فهم القرآن الكريم ، ومن الأمثلة على ذلك : ما روي عن عكرمة : أن نافع بن الأزرق [٣] قال

---

(١) المؤمنون : ٦٠ .

(٢) سنن الترمذي : كتاب تفسير القرآن – سورة المؤمنون (٥ / ٣٢٧) ح (٣١٧٥) ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، تحقيق / أحمد محمد شاكر وآخرين . كما أخرجه الحاكم في مستدركه (٢ / ٤٢٧) ح (٣٤٨٦) وعلق عليه بقوله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : أولى ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

(٣) ابن الأزرق : هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي ، رأس الأزارقة وإليه نسبتهم ، كان أمير قومه =

لابن عباس – رحمه الله – : أعمى البصر أعمى القلب ، يزعم أن قوماً يخرجون من النار ، وقد قال الله ﷻ : ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [١] ، فقال ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها [٢] ! هذه للكفار [٣] . فحبر الأمة هنا اعتمد على سياق الآيات في بيان أن الآية خاصة بالكفار .

ومن ذلك أيضاً أن رجلاً سأل سيدنا عليا بن أبي طالب – رضي الله عنه – قائلاً : يا أمير المؤمنين : أرأيت قول الله : ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [٤] وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ؟! فقال له علي – رضي الله عنه – : « أدنه ! ثم قال ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يوم القيامة [٥] . فهنا نجد أن سيدنا علياً – رضي الله عنه – صوب للسائل فهمه للآية الكريمة حيث بين له أن الإطلاق الوارد في قوله تعالى : ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ

= وفقيههم ، من أهل البصرة ، وكان من أوائل من نادوا بالخروج على عليّ بعد قضية التحكيم . توفي سنة خمس وستين للهجرة . الأعلام للزركلي (٧ / ٣٥١) .

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٧] .

(٢) يقصد قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة : ٣٦] .

(٣) تفسير الطبري (١٠ / ٢٩٤) .

(٤) النساء : ١٤١ .

(٥) تفسير الطبري (٩ / ٣٢٧) .

لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾هذا الإطلاق مقيد بيوم القيامة ، وقد اعتمد الإمام في ذلك على سياق الآية حيث قال تعالى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

ثالثها : اتفاق العلماء من المفسرين وغيرهم على ضرورة النظر في سياق الآيات وعدم الخروج عليه حتى يكون التفسير صحيحاً ، وإليك بعضاً من أقوالهم التي تؤكد ذلك :

١ – قال مسلم بن يسار : « إذا حدثت عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده » [١] .

٢ – وقال الإمام الشافعي : « وتبتدئ العرب الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره ، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله » [٢] .

٣ – وقال الإمام ابن قتيبة – رحمه الله – عن كتابه « تفسير غريب القرآن » : « وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بقصة الآية » [٣] . فقوله « وأشبهها بقصة الآية » إشارة إلى دلالة السياق .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ١٤) .

(٢) الرسالة للشافعي (١ / ٥٢) ، ط : دار الكتب العلمية .

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة (١ / ٤) ، ط : دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

٤ – وقال الطبري : « ... فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره ، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل ، أو خبر عن الرسول تقوم به حجة ، فأما الدعاوى فلا تتعذر على أحد »[١].

٥ – وقال الجويني : « المعاني يتعلق معظمها بفهم النظم والسياق »[٢] .

٦ – وقال ابن تيمية : « ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والدلالات ، فهذا أصل عظيم مهم نافع في فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقاً ، ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب وطرد الدليل ونقضه »[٣] . وقال أيضاً : « فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه ، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية »[٤] .

٧ – وقال ابن جزي الكلبي في بيان وجوه الترجيح : « أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ويدل عليه ما قبله وما بعده »[٥] .

٨ – وقال الزركشي : « واعلم أن القرآن قسمان : أحدهما ورد تفسيره بالنقل

---

(١) تفسير الطبري (٩ / ٣٨٩) .

(٢) البرهان في أصول الفقه للجويني (٢ / ٨٧٠) ، تحقيق د / عبد العظيم الديب ، ط : دار الوفاء بالمنصورة – مصر ، ط : الرابعة ١٤١٨ هـ .

(٣) مجموع الفتاوى (٦ / ١٨) .

(٤) المرجع السابق (٦ / ١٤) .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل . لابن جزي الكلبي (١ / ١٣) ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط : أولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .

عمن يعتبر تفسيره ... والثاني : ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين ، وهو قليل ، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالاتها بحسب السياق »[١] .

٩ – وقال الشاطبي : « فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده ، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض »[٢] .

١٠ – وقال السعدي : « وقد كثرت تفاسير الأئمة – رحمهم الله – لكتاب الله ، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مقصر ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد ، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود ، واللفظ وسيلة إليه ، فينظر في سياق الكلام ، وما سيق لأجله ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر ، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، حضريهم وبدويهم ، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله ، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه »[٣] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢ / ١٧٢) .

(٢) الموافقات للشاطبي (٣ / ٣٥١) ، ط : المكتبة التوفيقية .

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٠) ، ط : مؤسسة الرسالة ، ط : أولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

المبحـــث الثانـــي

أثر السياق القرآني في تفسير الطاهر بن عاشور

وفيه خمسة مطالب

المطلب الأول : أثر السياق في القراءات .

المطلب الثاني : أثر السياق القرآني في كشف المعاني .

المطلب الثالث : أثر السياق فيما يتعلق ببعض مباحث علوم القرآن .

المطلب الرابع : أثر السياق فيما يتعلق بأقوال المفسرين واختلافاتهم .

المطلب الخامس : أثر السياق فيما يتعلق بالنواحي اللغوية والبلاغية .

المطلـــب الأول

أثــر الســياق في القــراءات

وفيه مسألتان

المســألة الأولـى : أثــره في توجيــه القــراءات :

يعد الإمام ابن عاشور من العلماء الكبار في العصر الحديث الذين اعتنوا عناية كبيرة بالقراءات ، وخاصة القراءات العشر المتواترة ، وقد اعتنى بتوجيه القراءات وتعليلها والاحتجاج لها [١]، واعتمد في ذلك كثيراً على دلالة السياق ، ومن ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [٢] .

يقول ابن عاشور : « ولما كانت الآية مخبرة عن مس حل بمن تقدم من الأمم، ومنذرة بحلول مثله بالمخاطبين وقت نزول الآية ، جاز في فعل « يقول » أن يعتبر قول رسول أمة سابقة أي زلزلوا حتى يقول رسول المزلزلين، فـ « أل » للعهد، أو حتى يقول كل رسول لأمة سبقت فتكون « ألـ » للاستغراق ، فيكون الفعل محكيا

---

(١) منهج الإمام ابن عاشور في القراءات في تفسيره التحرير والتنوير ، ت / بسام رضوان عليان (ص ٥٦٦) .

(٢) البقرة : ٢١٤ .

به تلك الحالة العجيبة فيرفع بعد حتى ، لأن الفعل المراد به الحال يكون مرفوعاً ، وبرفع الفعل قرأ نافع وأبو جعفر ، وجاز فيه أن يعتبر قول رسول المخاطبين عليهم السلام فـ « أل » فيه للعهد ، والمعنى : وزلزلوا مثلهم حتى يقول الرسول فيكون الفعل منصوباً ، لأن القول لما يقع وقتئذ ، وبذلك قرأ بقية العشرة ، فقراءة الرفع أنسب بظاهر السياق ، وقراءة النصب أنسب بالغرض المسوق له الكلام ، وبكلتا القراءتين يحصل كلا الغرضين »[١]

فنلاحظ هنا أن الإمام ابن عاشور اعتمد على السياق في توجيه قراءتي الرفع والنصب في الفعل « يقول » حيث إن الآية تتحدث عن عذاب وقع بالأمم السابقة، وتنذر بحلول مثله بالمخاطبين وقت نزول الآية، وعليه فيجوز في الفعل « يقول » الرفع باعتبار أنه حكاية لقول الرسل السابقين ، ويجوز فيه النصب باعتبار أنه قول لم يقع بعد لرسول المخاطبين بالآية[٢] .

المسألة الثانية : أثره في الجمع بين القراءات المتواترة :

بالنظر في منهج الإمام ابن عاشور في التعامل مع القراءات نلاحظ أنه لم يكن يميل كثيراً إلى الترجيح بين القراءات ، ويظهر ذلك جلياً من قوله : « ... ثم إن القراءات العشر الصحيحة المتواترة قد تتفاوت بما يشتمل عليه بعضها من

---

(١) التحرير والتنوير (٢ / ٢٩٩ ، ٣٠٠) .

(٢) وإلى هذين الوجهين اللغويين أشار ابن مالك بقوله :

وتلو حتّى حالاً أو مؤولاً .:. به ارفعنّ وانصب المستقبلا

خصوصيات البلاغة أو الفصاحة أو كثرة المعاني أو الشهرة ، وهو تمايز متقارب ، وقل أن يكسب إحدى القراءات في تلك الآية رجحاناً »[١] .

بل إنه كان في بعض المواضع يعيب على من يسلك سبيل الترجيح بين القراءات على وجه يشعر بقبول قراءة ورد أخرى ، ومن ذلك مثلا : عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ... ﴾[٢] يقول : « .... ومن العجيب قول الطبري : والقراءة التي لا أستجيز غيرها بفتح الزاي ونصب : « القتل » وخفض « أولادهم » ورفع « شركاؤهم » وذلك على عادته في نصب نفسه حكماً في الترجيح بين القراءات »[٣] .

وكان الإمام ابن عاشور يحاول قدر استطاعته التوفيق بين القراءات المتواترة مستعيناً في ذلك بدلالة السياق ، ومن ذلك : في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾[٤] يقول – رحمه الله – : « وقوله ﴿ مَلِكِ ﴾ قرأه الجمهور بدون ألف بعد الميم ، وقرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف ﴿ مَالِك ﴾ بالألف ، فالأول صفة مشبهة صارت اسما لصاحب الملك بضم الميم ، والثاني اسم فاعل من ملك إذا

---

(١) التحرير والتنوير (١ / ٦٠) .

(٢) الأنعام : ١٣٧ .

(٣) التحرير والتنوير (٧ / ٧٨) .

(٤) الفاتحة : ٤ .

اتصف بالملك بكسر الميم ، وكلاهما مشتق من ملك ، فأصل مادة ملك في اللغة ترجع تصاريفها إلى معنى الشد والضبط كما قاله ابن عطية ، ثم يتصرف ذلك بالحقيقة والمجاز ، والتحقيق والاعتبار ، وقراءة ﴿ ملك ﴾ بدون ألف تدل على تمثيل الهيئة في نفوس السامعين لأن الملك بفتح الميم وكسر اللام هو ذو الملك بضم الميم والملك أخص من الملك ، إذ الملك بضم الميم هو التصرف في الموجودات والاستيلاء ويختص بتدبير أمور العقلاء وسياسة جمهورهم وأفرادهم ومواطنهم ، فلذلك يقال ملك الناس ولا يقال ملك الدواب أو الدراهم ، وأما الملك بكسر الميم فهو الاختصاص بالأشياء ومنافعها دون غيره ..... وكلتاهما – أي القراءتين – صحيحة ثابتة كما هو شأن القراءات المتواترة كما تقدم في المقدمة السادسة . وقد تصدى المفسرون والمحتجون للقراءات لبيان ما في كل من قراءة ﴿ ملك ﴾ بدون ألف وقراءة ﴿ مالك ﴾ بالألف من خصوصيات بحسب قصر النظر على مفهوم كلمة ملك ومفهوم كلمة مالك ، وغفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدين ، فأما والكلمة مضافة إلى يوم الدين فقد استويا في إفادة أنه المتصرف في شئون ذلك اليوم دون شبهة مشارك »[1] .

فنلاحظ هنا أن الإمام ابن عاشور استعان بسياق الآية في التوفيق بين القراءتين ، حيث إنه بذكر يوم الدين انتفت شبهة المشاركة لله في أمور المُلْك والمِلْك على حد سواء ، وعليه فالقراءتان متوافقتان ولا داعي للترجيح .

---

(١) التحرير والتنوير (١ / ١٧٢ ، ١٧٣) بتصرف يسير .

المطلـــب الثانـــي

أثـــر السـياق القرآنـي في كشـف المعانـي

لاشك أن الفائدة الكبرى لدلالة السياق تتمثل في كشفه عن المعاني ، وتوضيحه للمراد ، وإزالته للإبهام ، واعتماد الطاهر ابن عاشور على دلالة السياق في كشف المعاني اتخذ عدة صور أبرزها في النقاط الآتية :

أولاً : أثره في بيان المعنى المراد من اللفظة القرآنية :

اعتمد الإمام ابن عاشور كثيراً على دلالة السياق في بيان المراد من اللفظة القرآنية وتحديد مدلولها ، ومن ذلك :

١ – في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] يقول – رحمه الله – : « والمراد بالأمة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرسل ، كما يدل عليه السياق من قوله تعالى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ﴾ [2] » [3] . فنلاحظ هنا أن « الأمة » لفظ عام يشمل أمة الإيمان وأمة الكفر ، ولكنه حدد مدلول هذه اللفظة بأن المراد منها أمة الكفر معتمدا في ذلك على دلالة السياق حيث إن الآية السابقة قد خوطب بها أهل الشرك، وذلك

---

(١) الأعراف : ٣٤ .

(٢) الأعراف : ٣٣ .

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ٨٠) .

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

٢ – في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [١] . يقول – رحمه الله – : « والكتاب المذكور هنا هو الكتاب المعهود من السياق وهو كتاب الذين يكتمون ، فيشبه أن تكون « أل » عوضا عن المضاف إليه ، والذين يكتمونه هم اليهود والنصارى ، أي يكتمون البشارة بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ويكتمون بعض الأحكام التي بدلوها » [٢] .

فقد بين الإمام هنا أن المراد بالكتاب التوراة التي كتم اليهود ما فيها من البشارة بسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد اعتمد في ذلك على السياق حيث إن الآيات السابقة واللاحقة تتحدث عن أهل الكتاب ، وعداوتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولدينه الحنيف .

وفي المثالين السابقين نلاحظ أن الإمام استعان في بيان معنى اللفظة القرآنية بالسياق البعيد إلا أنه أحياناً كان يستعين بالسياق القريب المتمثل في الآية نفسها

---

(١) البقرة : ١٧٤ .

(٢) التحرير والتنوير (٢ / ١٢٢) .

لبيان معنى لفظة من الألفاظ الواردة فيها ، ومن ذلك : في تفسير قوله تعالى : ﴿ ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [١] يقول : « وسياق الآية على أن المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجل أراده الله أو إلى يوم الحساب » [٢] .

فنلاحظ هنا أنه بين أن المراد بالظلم الشرك حيث إن سياق الآية يتحدث عن المشركين ، وذلك في قوله – عز وجل – : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

ثانيـًا : أثره في بيان المعنى المراد من الآية القرآنية :

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [٣] يقول – رحمه الله – : « وقوله ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ﴾ والمقصود هو هذا المعطوف ، وأما قوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فتمهيد له كما علمت ، وذلك ظاهر من السياق لأن كل أحد يعلم أن المقصود أنهم يقولون آمنا في

---

(١) الرعد : ٦ .

(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ١٤٧) .

(٣) البقرة : ١٤ .

حال استهزاء يصرحون بقصده إذا خلوا بدليل أنه قد تقدم أنه يأبون من الإيمان ويقولون : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [١] إنكار لذلك » [٢] .

فنلاحظ هنا أن الإمام ابن عاشور يقرر في ضوء هذه الآية أن الاعتقاد الحقيقي لأهل النفاق ليس ما خاطبوا به المؤمنين ، وإنما اعتقادهم هو ما خاطبوا به شياطينهم من أنهم معهم في كفرهم ، وقد استدل على ذلك بالسياق حيث إن الآيات السابقة تتحدث عن حال أهل النفاق ، وكيف أنهم يمتنعون عن الإيمان ، ويقولون : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ .

ثالثـًا : أثره في توضيح المبهم . وذلك يتناول أموراً كثيرة منها :

١ – **أثره في تعيين المخاطب** : ومن ذلك : في تفسير قوله تعالى : ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [٣] يقول – رحمه الله – : « والخطاب موجه إلى المسلمين بقرينة السياق » [٤] وقد بين ذلك بقوله : « لأنه تعليم لأدب دعاء الله تعالى وعبادته ، وليس المشركون بمتهيئين لمثل هذا الخطاب ، وهو تقريب للمؤمنين وإدناء لهم وتنبيه على رضي الله عنهم ومحبته ، وشاهده قوله بعده : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

---

(١) البقرة : ١٣ .

(٢) التحرير والتنوير (١ / ٢٨٥) .

(٣) الأعراف : ٥٥ .

(٤) التحرير والتنوير (٨ / ١٣١) .

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١] » [٢] .

٢ – أثره في تحديد المقصود بالكلام : ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾[٣] حيث قال : « فالمراد بما وراءه في الآية بما عداه وتجاوزه أي بغيره ، والمقصود بهذا الغير هنا خصوص القرآن بقرينة السياق لتقدم قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ولتعقيبه بقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ » [٤] .

٣ – أثره في تعيين المشار إليه : ومن ذلك : في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾[٥] يقول – رحمه الله – : « وإشارة " هذا " تشير إلى معلوم من السياق ، وهو ما كان الكلام عليه من أول الجدال من قوله ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾[٦] الآيات ، وقد سبقت الإشارة إليه أيضا بقوله : ﴿أَمْ

---

(١) الأعراف : ٥٦ .

(٢) التحرير والتنوير (٨ / ١٣١) .

(٣) البقرة : ٩١ .

(٤) التحرير والتنوير (١ / ٥٩٠) .

(٥) الأنعام : ١٥٠ .

(٦) الأنعام : ١٤٣ .

كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾[١] » [٢] .

٤ – **أثره في تحديد الحال** : فقد كان – رحمه الله – يستعين بدلالة السياق في تحديد الحال أو الكيفية التي حصل بها الأمر ، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [٣] حيث قال : « وسياق الكلام وترتيبه مشعر بأنهم يدعون مجتمعين ، ولذلك قرن ذكر دعائهم بذكر تحيتهم ، فلعلهم إذا تراءوا ابتدروا إلى الدعاء بالتسبيح فإذا اقترب بعضهم من بعض سلم بعضهم على بعض ، ثم إذا راموا الافتراق ختموا دعاءهم بالحمد » [٤] .

٥ – **أثره في تحديد القائل** : ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [٥] بين – رحمه الله – أن جملة ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ من كلام لقمان مستدلا على ذلك بالسياق ، فقال : « وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق » [٦] .

---

(١) الأنعام : ١٤٤ .

(٢) التحرير والتنوير (٧ / ١١٥) .

(٣) يونس : ١٠ .

(٤) التحرير والتنوير (١١ / ٢٨) .

(٥) لقمان : ١٣ .

(٦) التحرير والتنوير (٢١ / ١٠١) .

٦ – أثـره في تعيين جماعات وأقوام : ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [١] بين أن المقصود بالأمة هنا جماعة المسلمين حيث إن سياق الآية وارد في بيان حال المسلمين مقابل حال المشركين الذين ذكرهم بقوله بعد ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [٢] وهاك نص كلامه : « والمقصود التنويه بالمسلمين في هديهم واهتدائهم ، وذلك مقابلة لحال المشركين في ضلالهم ، أي أعرض عن المشركين فإن الله أغناك عنهم بالمسلمين ، فما صدق « الأمة » هم المسلمون بقرينة السياق » [٣] .

---

(١) الأعراف : ١٨١ .

(٢) الأعراف : ١٨١ ، ١٨٢ .

(٣) التحرير والتنوير (٨ / ٣٦٥) .

المطلب الثالث

أثره فيما يتعلق ببعض مباحث علوم القرآن

وفيه عدة مسائل

المسألة الأولى : أثره في أسباب النزول .

لدلالة السياق أثر كبير في فهم المعنى المنشود من الآية من حيث الموضوع ، والخطاب ، والأسباب التي أدت إليه ، ولئن كانت دلالة سياق القرآن في فهم معنى الآية هامة، فأثرها في تحديد سبب النزول أهم ، لأن أسباب النزول قضايا وحوادث تعلق النزول بها ، فلابد أن يكون بينهما قدر من الاشتراك في الألفاظ والمعاني ، وإلا فلا معنى لتسميتها بأسباب النزول[١] .

وبالنظر في تفسير ابن عاشور نلاحظ أنه اعتمد كثيراً على السياق في تعامله مع أسباب النزول سواء في الاستشهاد به على صحة سبب النزول أو على رده أو على الترجيح بين الأسباب إذا تعددت ، وهاك بياناً لذلك مؤيداً بالأمثلة :

١ – الاستشهاد به على صحة سبب النزول الوارد في الآية :

ومن ذلك مثلا : في سبب نول قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا

(١) المحرر في أسباب النزول ، ت د/ خالد المزيني (١ / ١٨٠) ، ط : دار ابن الجوزي ، ط : الأولى ١٤٣٧ هـ .

طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١) ، أخرج البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم - زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ ، وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ (٢) .

وقد استشهد ابن عاشور على صحة سبب النزول بموافقته لسياق الآيات حيث قال : « لما بين الله في الآيات السابقة آداب النبي – صلى الله عليه وسلم – مع أزواجه قفاه في هذه الآية بآداب الأمة معهن ، وصدر بالإشارة إلى قصة هي سبب نزول هذه الآية ، وهي ما في صحيح البخاري وغيره عن أنس بن مالك » (٣) .

٢ – الاستشهاد به على رد سبب النزول الضعيف :

ومن ذلك مثلا : في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ

---

(١) الأحزاب : ٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير – سورة الأحزاب (٤ / ١٧٩٩) ح (٤٥١٣) ، ط : دار ابن كثير – اليمامة – بيروت ، ط : الثالثة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

(٣) التحرير والتنوير (٢١ / ٣٠٦) .

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [١] أخرج الطبري في تفسيره عن أشعث عن الزهري قال : « نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار ، كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كلما قرأ شيئا قرأه ، فنزلت ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ » [٢] .

وبالنظر في هذا الأثر نجد أنه ضعيف ، وذلك لعلتين : الأولى : الإرسال ، والثانية : ضعف أشعث [٣] .

وقد استشهد ابن عاشور على عدم صحة هذا الأثر بمخالفته السياق ، حيث قال : « وهذا الخطاب شامل للكفار على وجه التبليغ ، وللمسلمين على وجه الإرشاد لأنهم أرجى للانتفاع بهديه لأن قبله قوله ﴿ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٤].

ولا شبهة في أن هذه الآية نزلت في جملة الآيات التي قبلها وعلى مناسبتها ، سواء أريد بضمير الخطاب بها المشركون والمسلمون معا ، أم أريد المسلمون تصريحاً والمشركون تعريضاً ، أم أريد المشركون للاهتداء والمسلمون بالأحرى لزيادته . فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال ، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول – صلى الله عليه

---

(١) الأعراف : ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣ / ٣٤٦) .

(٣) الاستيعاب في بيان الأسباب ، ت / سليم الهلالي ، ومحمد بن موسى آل نصر (٢ / ١٨٠) ، ط : دار ابن الجوزي .

(٤) الأعراف : ٢٠٣ .

وسلم – المفضي إلى الإيمان به ، ولما جاء به من إصلاح النفوس ، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه ، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين .

فهذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات وفي مقتضى الأمر من قوله : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ، يبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾[1] ، ويحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى . وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجرده في صور كثيرة مؤول ، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحدا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت ، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله ، ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها : فمنهم من خصها بسبب رأوا أنه سبب نزولها ، فرووا عن أبي هريرة أنها نزلت في قراءة الإمام في الجهر ، وروى بعضهم أن رجلا من الأنصار صلى وراء النبي – صلى الله عليه وسلم – صلاة جهرية فكان يقرأ في الصلاة والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ فنزلت هذه الآية في أمر الناس بالاستماع لقراءة الإمام . وهؤلاء قصروا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه ، عند من يخصص به ، وهذا تأويل ضعيف لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح ، ولا هو

---

(١) فصلت : ٢٦ .

مما يساعد عليه نظم الآي التي معها ، وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل وليس فيه شيء مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم »[١] .

٣ – أثره في الترجيح بين أسباب النزول :

من المعلوم أنه قد يرد للآية الواحدة أكثر من سبب نزول ، ومنهج العلماء في ذلك أنه إن لم يتيسر الجمع يقومون بالترجيح ، وكان الإمام ابن عاشور يعتمد كثيراً على السياق في الترجيح بين الأسباب إذا تعددت ، ومن ذلك مثلا : في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾[٢] وردت روايتان صحيحتان :

الأولى : أخرج البخاري ومسلم : « أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِىَ ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ ، مُعَذَّبًا ، لَنُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ ، فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ – كذلك حتى قوله – يَفْرَحُونَ بِمَا

---

(١) التحرير والتنوير (٨ / ٤١٠ ، ٤١١) .

(٢) آل عمران : ١٨٧ ، ١٨٨ .

أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ » [١] .

الثانيـة : أخـرج البخـاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – « أَنَّ رِجَالاً مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَنَزَلَتْ ﴿ لاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ ﴾ الآيَة » [٢] .

وقد رجح ابن عاشور الرواية الأولى معتمداً في ذلك على السياق ، حيث إن سياق الآيات إنما هو في بيان أحوال أهل الكتاب ، يقول – رحمه الله – بعد أن ساق الآية : « تكملة لأحوال أهل الكتاب المتحدث عنهم ببيان حالة خلقهم بعد أن بين اختلال أمانتهم في تبليغ الدين ، وهذا ضرب آخر جاء به فريق آخر من أهل الكتاب ، فلذلك عبر عنهم بالموصول للتوصل إلى ذكر صلته العجيبة من حال من يفعل الشر والخسة ، ثم لا يقف عند حد الانكسار لما فعل ، أو تطلب الستر على شنعته ، بل يرتقي فيترتب ثناء الناس على سوء صنعه ، ويتطلب المحدة عليه » [٣] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير – سورة آل عمران (٤ / ١٦٦٥) ح (٤٢٩٢) ، وأخرجه مسلم في صحيحه : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤ / ٢١٤٣) ح (٢٧٧٨) ، ط : دار إحياء التراث العربي .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير – سورة آل عمران (٤ / ١٦٦٤) ح (٤٢٩١) ، وأخرجه مسلم في صحيحه : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤ / ٢١٤٢) ح (٢٧٧٧) ، ط : دار إحياء التراث العربي .

(٣) التحرير والتنوير (٣ / ٣٠٥) .

المسألة الثانية : أثره في توجيه المتشابه اللفظي :

المتشابه اللفظي : ما تكرر من آيات القرآن لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير [١] .

وقد اعتمد العلماء في توجيه المتشابه اللفظي على عدة أمور يأتي في مقدمتها السياق ، يقول السعدي : « فينظر في سياق الكلام ، وما سيق لأجله ، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر ، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، حضريهم وبدويهم ، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله ، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه » [٢] .

ومن أبرز العلماء الذين اعتمدوا على السياق في توجيه المتشابه اللفظي الإمام ابن عاشور ، وهاك بعض الأمثلة على ذلك :

١ – يقول تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [٣] ففي تفسير هذه الآية يبين الشيخ السر في ورود لفظ الرحمن هنا، بينما جاء لفظ الرب في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [٤] وقد اعتمد الشيخ في ذلك على

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير (١ / ٢) ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت .

(٢) تفسير السعدي (١ / ٣٠) .

(٣) الشعراء : ٥ .

(٤) الأنبياء : ٢ .

السياق ، يقول – رحمه الله – « وذكر اسم الرحمان هنا دون وصف الرب كما في سورة الأنبياء لأن السياق هنا لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على إعراض قومه فكان في وصف مؤتي الذكر بالرحمان تشنيع لحال المعرضين وتعريض لغباوتهم أن يعرضوا عما هو رحمة لهم، فإذا كانوا لا يدركون صلاحهم فلا تذهب نفسك حسرات على قوم أضاعوا نفعهم وأنت قد أرشدتهم إليه وذكرتهم » (١) .

٢ – يقول تعالى في سورة يونس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢) . ونلاحظ هنا أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ جاء على أسلوب الحصر الذي يدل على التأكيد والرد على المنكرين ، بينما جاء في سورة البقرة بأسلوب الخبر الخالي من التأكيد ، حيث قال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٩ / ١١٤) .

(٢) يونس : ١٩ .

(٣) البقرة : ٢٣١ .

وقد بين الإمام ابن عاشور الحكمة من ذلك معتمداً على السياق ، فقال : « وحسن القصر هنا وقوعه عقب الجدال مع الذين غيروا الدين الحق وروجوا نحلتهم بالمعاذير الباطلة كقولهم : ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِّ ﴾ (١) ، وقولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِّ زُلْفَى ﴾ (٢) ، بخلاف آية سورة البقرة : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فإنها وقعت في سياق المجادلة مع أهل الكتاب لقوله : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ (٣) ، وأهل الكتاب لا ينكرون أن الناس كانوا أمة واحدة فآية هذه السورة تشير إلى الوحدة الاعتقادية ، ولذلك عبر عن التفرق الطارئ عليها باعتبار الاختلاف المشعر بالمذمة والمعقب بالتخويف في قوله : ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ ﴾ إلى آخره ، وآية سورة البقرة تشير إلى الوحدة الشرعية التي تجمعها الحنيفية الفطرية ، ولذلك عبر عن التفرق الذي طرأ عليها بأن الله بعث النبيين مبشرين ومنذرين ، ثم جاء ذكر الاختلاف عرضا عقب ذلك بقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ وأريد به الاختلاف بين أتباع الشرائع لقوله : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ » (٤) .

المسألة الثالثة : أثره في دفع موهم الاختلاف والتناقض :

قد يرد في بعض الآيات القرآنية ما يوهم ظاهره اختلافاً مع آية أخرى ،

---

(١) يونس : ١٨ .

(٢) الزمر : ٣ .

(٣) البقرة : ٢١١.

(٤) التحرير والتنوير (١١ / ٤٧ ، ٤٨) .

ولاشك أن هناك طرقاً كثيرة لدفع هذا التوهم من أهمها السياق ، وهو ما اعتمد عليه ابن عاشور كثيراً في تفسيره ، ومن ذلك مثلاً : في سورة آل عمران ذكر الله – عز وجل – أنه وعد المؤمنين في غزوة بدر بثلاثة آلاف من الملائكة ثم صيرهم إلى خمسة آلاف ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [1] في حين أن الله – عز وجل – في سورة الأنفال ذكر أنه وعد المؤمنين بألف من الملائكة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [2] .

وقد وفق ابن عاشور بين الآيتين مستخدماً دلالة السياق ، فقال – رحمه الله – : « ووجه الجمع بين الآيتين أن الله وعدهم بألف من الملائكة وأطمعهم بالزيادة بقوله : ﴿ مردفين ﴾ [الأنفال : ٩] أي مردفين بعدد آخر ، ودل كلامه هنا على أنهم لم يزالوا وجلين من كثرة عدد العدو ، فقال لهم النبي – صلى الله عليه وسلم – : « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » أراد الله بذلك زيادة تثبيتهم ثم زادهم ألفين إن صبروا واتقوا . وبهذا الوجه فسر الجمهور ، وهو الذي يقتضيه السياق » [3] .

---

(١) آل عمران : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) الأنفال : ٩ .

(٣) التحرير والتنوير (٣ / ٢٠٨) .

المسألة الرابعة : أثره في رد دعوى النسخ :

لاشك أن هناك اتفاقاً بين أهل العلم على أن النسخ جائز عقلا وواقع سمعاً ، ولكن هناك ضوابط تحكم القول بالنسخ ، من أهمها : عدم مخالفته للسياق .

وبالنظر في تفسير الطاهر ابن عاشور نلاحظ أنه رد كثيراً من دعاوى النسخ بسبب عدم التزامها بالضابط السابق، ومن ذلك مثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ [١] يقول – رحمه الله – : « وهذه تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – وتطمين له بأنه ما قصر في أداء الرسالة . ولا تعلق لهذه الآية بأحكام قتالهم إذ لم يكن السياق له ولا حدثت دواعيه يومئذ فلا وجه للقول بأنها منسوخة [٢] » [٣] .

---

(١) القمر : ٦ .

(٢) القول بأنها منسوخة ذكره ابن سلامة في كتابه الناسخ والمنسوخ (١ / ١٧١) ، ط : المكتب الإسلامي – بيروت ، ط : الأولى ١٤٠٤ هـ .

(٣) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٧٠) .

المطلب الرابع

أثره فيما يتعلق بأقوال المفسرين واختلافاتهم

في كثير من المواضع يحصل اختلاف بين المفسرين في بيان المعنى المراد ، وللعلماء في التعامل مع هذا الأمر مسالك ثلاثة :

أولها : الجمع بين هذه الأقوال إن أمكن .

وثانيها : الترجيح .

وثالثها : رد بعض هذه الأقوال .

ولاشك أن لكل مسلك من هذه المسالك قواعد تحكمه يأتي في مقدمتها السياق ، وهذا ما اعتمد عليه ابن عاشور سواء عند الجمع أو الترجيح أو الرد ، وذلك على النحو الآتي :

أولاً : أثـره في الجمـع بـين الأقـوال :

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [1] بين أن للمفسرين في المراد من القرب قولين :

أولهما : أنه القرب المكاني فهو كناية عن كونه في المقدورية بمنزلة الشيء القريب

---

(١) النحل : ٧٧ .

التناول كقوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[١] .

وثانيهما : أنه القرب الزماني ، أي فهو أقرب من لمح البصر حصولاً ، أي أسرع حصولا .

وقد قبل الإمام كلا القولين ؛ لأن سياق الآية في آخرها صالح لكلا التفسيرين ، فالآية ختمت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقدرته – عز وجل – صالحة للقرب المكاني وللقرب الزماني على حد سواء[٢] .

ثانيــًا : أثـره في الترجيـح بـين أقـوال المفسـرين :

ومن ذلك : في بيان معنى الكلالة في قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾[٣] ذكر أن فيها قولين للمفسرين :

الأول : أن الكلالة ما خلا الولد والوالد ، وهذا مذهب الجمهور .

الثاني : الكلالة : من لا ولد له ، أي ولو كان له والد ، وهو مذهب سيدنا عبد الله بن عباس وغيره .

وقد رجح ابن عاشور القول الأول لأن السياق يساعده، حيث إن ذكر الكلالة بعد ميراث الأولاد والأبوين مؤذن بأنها حالة مخالفة للحالين[٤] .

---

(١) ق : ١٦ .

(٢) التحرير والتنوير (١٣ / ١٨٦) .

(٣) النساء : ١٧٦ .

(٤) التحرير والتنوير (٤ / ٥٢) .

ومن ذلك أيضا : في بيان معنى « الأنام » في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [١] يقول – رحمه الله – : « اختلفت أقوال أهل اللغة والتفسير فيه .... وفسره الزمخشري بقوله الخلق وهو كل ما ظهر على وجه الأرض من دابة فيها روح [٢] . وهذا مروي عن ابن عباس وجمع من التابعين . وعن ابن عباس أيضا : أنه الإنسان فقط . وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وسياق الآية يرجح أن المراد به الإنسان ؛ لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر كقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [٣] » [٤] .

ثالثًا : أثره في رد بعض الأقوال التفسيرية :

ومن ذلك مثلاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [٥] يقول – رحمه الله – : « هذه الأحوال هي متعارف أحوال البشر في السلامة، أي أحوال الشغل والراحة وقصد النوم. وقيل : أراد أحوال المصلين : من قادر ، وعاجز وشديد العجز . وسياق الآية بعيد عن هذا المعنى » [٦] .

---

(١) الرحمن : ١٠ .

(٢) الكشاف للزمخشري (٤ / ٤٢٤) ، ط : دار الكتاب العربي .

(٣) البقرة : ٢٩ .

(٤) التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٢٥ ، ٢٢٦) .

(٥) آل عمران : ١٩١ .

(٦) التحرير والتنوير (٣ / ٣٠٨) .

ومن ذلك أيضا : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [١] نجد الإمام أولا يخصص هذه الآية بأهل الشرك معتمداً على السياق ، فيقول : « لما ذكر انتزاع الذين هم أولى بالنار من بقية طوائف الكفر [٢] عطف عليه أن جميع طوائف الشرك يدخلون النار ، دفعا لتوهم أن انتزاع من هو أشد على الرحمان عتيا هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب ، بأن يحسبوا أن كبراءهم يكونون فداء لهم من النار أو نحو ذلك ، أي وذلك الانتزاع لا يصرف بقية الشيع عن النار فإن الله أوجب على جميعهم النار » [٣] .

ثم بعد ذلك يرد الإمام الرأي القائل بأن المؤمنين يشملهم الخطاب ، وقد اعتمد أيضا على السياق في ذلك ، فقال : « فليس الخطاب في قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام ؛ بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النار مع الكافرين ثم ينجون من عذابها ، لأن هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق ، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة . ولأن فضل الله على المؤمنين بالجنة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقا واحدا ، كيف وقد صدر الكلام بقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [٤] ،

---

(١) مريم : ٧١ .

(٢) يقصد قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٦٩] .

(٣) التحرير والتنوير (١٦ / ٧١) .

(٤) مريم : ٦٨ .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾[١] ، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين .

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٢] عقب قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [٣] . فلا يتوهم أن جهنم موعد عباد الله المخلصين مع تقدم ذكره لأنه ينبو عنه مقام الثناء »[٤] .

---

(١) مريم : ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) الحجر : ٤٣ .

(٣) الحجر : ٤٢ .

(٤) التحرير والتنوير (١٦ / ٧١) .

المطلـــب الخـــامس

أثــره فيمــا يتعلــق بالنواحــي اللغويــة والبلاغيــة

اعتمد ابن عاشور كثيراً على السياق في المسائل المتعلقة بالنواحي اللغوية والبلاغية ، وذلك يظهر فيما يلي :

أولاً : أثره في بيان المحذوف من الآية القرآنية ، وفيه ثلاث نقاط :

الأولى : أثره في بيان المفـرد المحذوف . ومن ذلك : في تفسـير قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[١] يقول – رحمه الله – : « الرغد وصف لموصوف دل عليه السياق ، أي أكلا رغدا »[٢] .

وإن شئت المزيد من هذه النماذج فإنني أذكر مواضع بعضها في الهامش فارجع إليه[٣] .

الثانية : أثره في بيان الجملة المحذوفة :

ومن ذلك : اعتماده على السياق في بيان جواب الشرط المحذوف في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا .... ﴾[٤] حيث قال : « وأفاد

(١) البقرة : ٣٥ .

(٢) التحرير والتنوير (١ / ٤١٧) .

(٣) (١ / ٣٣٦) ، (٢ / ٣٨٥) ، (٥ / ٣٧) .

(٤) الأعراف : ٢٨ .

الشرط ربطاً بين فعلهم الفاحشة وقولهم : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ باعتبار إيجاز في الكلام يدل عليه السياق ، إذ المفهوم أنهم إذا فعلوا فاحشة فأنكرت عليهم أو نهوا عنها » [١] .

الثالثة : أثره في بيان الجملتين المحذوفتين :

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [٢] يقول – رحمه الله – : « وقد دل السياق على جملتين محذوفتين ، إذ التقدير : فألقاها فدبت فيها الحياة وانقلبت ثعباناً فإذا هي تلقف ، دل على الجملة الأولى الأمر بالإلقاء ، وعلى الجملة الثانية التلقف لأنه من شأن الحيوان ، والعصا إذا دبت فيها الحياة صارت ثعباناً بدون تبديل شكل » [٣] .

ثانيًا : أثـره في بيـان مرجـع الضمـير :

استعان ابن عاشور بالسياق في تحديد مرجع الضمير ، وذلك في مواضع متعددة من تفسيره منها: في تحديد مرجع الضمائر الواردة في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [٤] ، يقول : تعود الضمائر الثلاثة المجرورة بالإضافة وبحرف « على » على القرية

---

(١) التحرير والتنوير (٨ / ٦٤) .

(٢) الأعراف : ١١٧ .

(٣) التحرير والتنوير (٨ / ٢٣٥) .

(٤) هود : ٨٢ .

المفهومة من السياق »[١] ، وإن شئت المزيد من النماذج فهاك في الهامش[٢] .

ثالثاً : أثره في كشف دلالة التقديم والتأخير :

تقديم اللفظة القرآنية أو تأخيرها عن موضعها له سر معنوي من دون شك ، وتعتبر دلالة السياق من أبرز الدلائل التي تساعد في كشف هذا السر ، ومن هنا اعتمد عليها الطاهر بن عاشور كثيرا في ذلك ، فمثلاً : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ... ﴾[٣] ، يقول : « وقوله ﴿ عَدُوّاً ﴾ مفعول ﴿ جَعَلْنَا ﴾ الأول ، وقوله ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ المجرور مفعول ثان لـ ﴿ جَعَلْنَا ﴾ وتقديمه على المفعول الأول للاهتمام به ، لأنه الغرض المقصود من السياق ، إذ المقصود الإعلام بأن هذه سنة الله في أنبيائه كلهم ، فيحصل بذلك التأسي والقدوة والتسلية »[٤] .

ومن ذلك أيضا اعتماده على السياق في بيان سر تقديم الأموال على الأولاد في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (١١ / ٣٠٧) .

(٢) (٦ / ٢٥٨)، (٨ / ١٨٢)، (١٨ / ٦٠) .

(٣) الأنعام : ١١٢ .

(٤) التحرير والتنوير (٧ / ٧) .

(٥) المنافقون : ٩ .

« انتقال من كشف أحوال المنافقين المسوق للحذر منهم والتحذير من صفاتهم . إلى الإقبال على خطاب المؤمنين بينهم عما شانه أن يشغل عن التذكر لما أمر الله ونهى ، ثم الأمر بالإنفاق في سبل الخير في سبيل الله ومصالح المسلمين وجماعتهم وإسعاف آحادهم ، لئلا يستهويهم قول المنافقين ﴿ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﴾ [المنافقون : ٧] والمبادرة إلى ذلك قبل إتيان الموت الذي لا يدري وقت حلوله حين تمنى أن يكون قد تأخر أجله ليزيد من العمل الصالح فلا ينفعه التمني وهو تمهيد لقوله بعده ﴿ وأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [المنافقون :١٠] ، فالمناسبة لهذا الانتقال هو حكاية مقال المنافقين ولذلك قدم ذكر الأقوال على ذكر الأولاد لأنها أهم بحسب السياق »[١] .

رابعًا : أثره في بيان العام المراد به الخصوص :

من المعلوم أنه من أقسام العام : العام المراد به الخصوص ، وهو الذي لم يقصد به شموله لجميع أفراده من أول الأمر ، وإنما قصد به أحد أفراد جنسه ، وهو يعتبر مجاز لا حقيقة ؛ لأنه خرج عن أصل وضعه ، وقد اعتمد ابن عاشور على دلالة السياق ، وذلك كقرينة تبين العام المراد به الخصوص .

ومن ذلك : في تفسير قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾[٢] ، يقول – رحمه الله – : « والوالدات عام ، لأنه جمع

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨ / ٢٢٤) .

(٢) البقرة ٢٣٣ .

معرف باللام ، وهو هنا مراد به خصوص الوالدات من المطلقات بقرينة سياق الآي التي قبلها من قوله : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ولذلك وصلت هذه الجملة بالعطف للدلالة على اتحاد السياق ، فقوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ ﴾ معناه : والوالدات منهن ، أي من المطلقات المتقدم الإخبار عنهن في الآي الماضية ، أي المطلقات اللائي لهن أولاد في سن الرضاعة ، ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا يقع بين الأب والأم ، إلا بعد الفراق ، ولا يقع في حالة العصمة ؛ إذ من العادة المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أن الأمهات يرضعن أولادهن في مدة العصمة ، وأنهن لا تمتنع منه من تمتنع إلا لسبب طلب التزوج بزوج جديد ، بعد فراق والد الرضيع ؛ فإن المرأة المرضع لا يرغب الأزواج فيها ؛ لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها في أحوال كثيرة »[1] .

خامسًا : أثره في بيان سر الفصل والوصل :

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[2] بين الإمام سر فصل هذه الآية عما قبلها من الآيات التي تحدثت عن أحوال اليهود والجرائم التي ارتكبوها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢ / ٤٠٩) .

(٢) البقرة : ٩٤ .

أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١) .

وقد اعتمد في بيان سر الفصل على دلالة السياق ، حيث إن سياق هذه الآية مختلف عما قبلها ، فالآيات التي قبلها إنما هي بيان الجرائم اليهود ، وهذه الآية رد على دعواهم بأنهم أحباب الله وأن الجنة خالصة لهم ، وبذلك حسن الفصل ، وهاك نص كلامه : « فهذه الآية تحدت اليهود كما تحدى القرآن مشركي العرب بقوله : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة : من الآية ٢٣] وإنما فصلت هاته الجملة عما قبلها لاختلاف السياق ؛ لأن هذه الآية إلقاء حجة عليهم والآيات السابقة تفظيع لأحوالهم وإن كان في كل من ذلك احتجاج لكن الانتقال من أسلوب إلى أسلوب كان محسنا للفصل دون العطف لا سيما مع افتتاح الاحتجاج بقل » (٢) .

سادسًا : أثره في توجيه الإعراب :

ومن ذلك مثلا : اعتماده على السياق في توجيه إعراب قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ ﴾ (٣) بكونه استئنافاً بيانياً ، حيث قال : « مقتضى سياق السورة واتصال آي السورة وتتابعها في النزول أن تكون هذه الآيات متصلة النزول بالآيات التي قبلها فيكون موقع جملة : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ﴾ موقع الاستئناف البياني، لأن قوله: ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة

(١) البقرة : ٩١ .

(٢) التحرير والتنوير (١ / ٥٩٦) .

(٣) الحج : ١٩ .

العذاب الذي حق على كثير من الناس الذين لم يسجدوا لله تعالى ، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك . فهي استئناف بياني . فاسم الإشارة المثنى مشير إلى ما يفيده قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (١) من انقسام المذكورين إلى فريقين أهل توحيد وأهل شرك كما يقتضيه قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ من كون أولئك فريقين : فريق يسجد لله تعالى ، وفريق يسجد لغيره . فالإشارة إلى ما يستفاد من الكلام بتنزيله منزلة ما يشاهده بالعين ، ومثلها كثير في الكلام » (٢) .

سابعًا : أثره في دفع توهم خلاف المقصود :

فالآيات القرآنية قد يرد فيها ما يوهم ظاهره خلاف المقصود ، وهنا يأتي السياق في مقدمة الدلائل التي اعتمد عليها ابن عاشور في الكشف عن المعنى الحقيقي ودفع الإشكال ، ومن ذلك مثلا في قوله تعالى : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ..... ﴾ (٣) .

قد يتوهم البعض أن تقييد النهي عن الكفر بالأولية يفهم منه جواز الكفر في غير أولية ، ولكن ابن عاشور يبين أن دلالة السياق تفيد أن هذا قيد لا مفهوم له بل المقصود عكس ذلك تماما ، فالآية تنهى عن الكفر تماماً ، وتأمر بنقيضه وهو الإيمان

---

(١) الحج : ١٨ .

(٢) التحرير والتنوير (١٧ / ١٦٥) .

(٣) البقرة : ٤١ .

، أي لا تكونوا أول الكافرين بل كونوا أول المؤمنين ، وهاك نص كلامه :

يقول – رحمه الله – : « ثم إن وصف أول يشعر بتقييد النهي بالوصف ولكن قرينة السياق دالة على أنه لا يراد تقييد النهي عن الكفر بحالة أوليتهم في الكفر ، إذ ليس المقصود منه مجرد النهي عن أن يكونوا مبادرين بالكفر ولا سابقين به غيرهم لقلة جدوى ذلك ولكن المقصود الأهم منه أن يكونوا أول المؤمنين فأفيد ذلك بطريق الكناية التلويحية فإن وصف أول أصله السابق غيره في عمل يعمل أو شيء يذكر فالسبق والمبادرة من لوازم معنى الأولى لأنها بعض مدلول اللفظ ولما كان الإيمان والكفر نقيضين إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر كان النهي عن أن يكونوا أول الكافرين يستلزم أن يكونوا أول المؤمنين »[١] .

ثامنًا : أثره في كشف المجاز الوارد في الآية القرآنية :

يعتبر السياق من أبرز القرائن التي اعتمد عليها ابن عاشور في بيان خروج اللفظ عن معناه الحقيقي ، واستعماله في معنى مجازي ، ومن ذلك مثلا في تفسير قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾[٢] ، يقول ابن عاشور : « والمراد بالقبلة في قوله : ﴿ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ﴾ الجهة التي يولون إليها وجوههم عند الصلاة ، كما دل عليه السياق وأخبار سبب نزول هذه الآيات . والقبلة في أصل الصيغة اسم على زنة فعلة بكسر الفاء وسكون العين ، وهي زنة المصدر الدال على

---

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤٤٥) .

(٢) البقرة : ١٤٢ .

هيئة فعل الاستقبال أي التوجه اشتق على غير قياس بحذف السين والتاء ، ثم أطلقت على الشيء الذي يستقبله المستقبل مجازا وهو المراد هنا لأن الانصراف لا يكون عن الهيئة »[١] .

(١) التحرير والتنوير (٢ / ٨) .

الخاتمة

أسأل الله حسنها

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبتوفيقه يصل المرء إلى أسمى الغايات .

وبعـــد

ففي ختام هذه الدراسة أود أن أشير إلى أبرز النتائج التي ظهرت لي من خلال هذا البحث ، والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

١ – يعتبر السياق القرآني مصدراً أصيلاً من مصادر التفسير لما له من أثر كبير في فهم آيات القرآن الكريم ، وعليه فالقول التفسيري الذي يخالف السياق ويتعارض معه قول غير مقبول .

٢ – تتوقف معرفة السياق على الاجتهاد ، ودقة النظر ، وطول التأمل في كتاب الله تعالى ، وهذا يتطلب دراية بحال المتكلم وحال السامع ، وأسباب النزول ، إضافة إلى ضرورة النظر في نظم النص وألفاظه ودلالات تركيبه ، وذلك لاستنباط ملامح الترابط بينها .

٣ – تتجلى أهمية السياق في أمور كثيرة أبرزها معرفة المراد من الآيات ، والترجيح بين أقوال المفسرين عند الاختلاف ، ومعرفة أوجه التناسب بين السور والآيات ، وتوجيه المتشابه اللفظي ، كما أنه يساعد في دفع موهم الاختلاف والتناقض عن آي القرآن .

٤ – يستمد السياق قوته كمصدر من مصادر التفسير من كون الرسول – صلى الله عليه وسلم – أول من استخدمه في بيان المراد من النص القرآني ، إضافة إلى استعمال الصحابة له في فهم آيات القرآن الكريم .

٥ – يعتبر الإمام ابن عاشور من أبرز المفسرين الذين اعتمدوا على السياق القرآني في تفسيره ، وقد ظهر ذلك في أمور عديدة أبرزها : توجيه القراءات والجمع بينها ، واستعماله في كشف المعاني ، وكذلك في بعض مباحث علوم القرآن كأسباب النزول والمتشابه اللفظي والنسخ وغيرها ، كما أنه اعتمد عليه في تعامله مع اختلاف المفسرين سواء بالجمع أو الترجيح أو الرد ، إضافة إلى ذلك فقد كان للسياق القرآني أثر بالغ في تفسير التحرير والتنوير فيما يتعلق بالنواحي اللغوية والبلاغية حيث كان له دور كبير في بيان المحذوف ، وكشف دلالة التقديم والتأخير ، ودفع موهم خلاف المقصود ، وكشف المجاز وغيرها .

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمـــــــه

د / محمد عبد الوهاب الراسخ